54- الحلة السيراء ج2 ص: 43.

55- جودت الركابي- في الأدب الأندلسي ص: 25.

56- البيان المغرب ج3 ص: 284.

57- الذخيرة ق2 ج1 ص: 55.

58- المعجب ص: 189، 190.

59- ابن عبود- إشبيلية في عهد بني عباد ص: 204.

شعرية اللغة في أعمال "ياسمينة صالح" الروائية
"بحر الصمت" و"وطن من زجاج" أنموذجا

حميدي نجاة
Hamidinadjet08@hotmail.fr

الملخص:

إنّ انفتاح النص الروائي أضحى مطلبا فنيا وجماليا، يمكن أن يحقق عبر اللغة ومستوياتها المتفاعلة نصيا. ولعل من أكثر ما يمكن أن يشد الانتباه عند قراءة نصي "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" للروائية "ياسمينة صالح" أنّهما يستجيبان لهذا الانفتاح، مما أكسب اللغة قيمة جمالية وفنية عالية. حيث حاولت الكاتبة مقاربة النصين دلاليا بلغة شعرية دون أن تبدو للعيان. لغة عنيفة، بنيتها التركيبية شديدة الوقع من حيث إحكام نسيجها. أمّا لغة السرد فميزتها بدقّة المعنى، ووضوح الرؤية، فضلا عن لغة "الأنا" التي لم تنجح الكاتبة في إخفائها على امتداد السرد. كما زادت من شعرية النص لما وظفت الترميز الرومانسي في لغة الخطاب السردي.

الكلمات المفتاحية:

شعرية / اللغة / العتبات / المكان / الصمت / الوطن / بلاغة / التركيبة / السرد / الانفتاح.

La poétique de la langue dans Les œuvre de Yasmina Salah:

Louverture du texte narratif est devenu une exigence esthétique qui peut se concrétiser à travers les divers niveaux de la langue qui interagissent dans le cadre du texte. Et ce qui attire peut être le plus l'attention à la lecture de « La mer du silence » et « Une patrie en verre » de la

romancière Yasmina Salah , c'est que ces Dera récit satisfont à cette exigence d'ouverture , ce qui confère au texte une grande valeur esthétique, car l'auteur a tenté de rapprocher poétiquement les deux texte et cela de façon implicite.

La romancière a développé un discours narratif où transparait une subjectivité très vivace difficile à dissimuler. Par ailleurs « Yasmina Salah » a réussi à augmenté la dimension poétique de sa texte grâce à l'utilisation de la symbolique romanesque dans sa narration.

بين الوطن والهوية، بين الموت والحياة، بين معاناة الماضي ولا استقرار الحاضر، بين معلم القرية (المثقف) وإقطاعي القرية (غير المثقف) بين العصبية (الجد) والسارد (الحفيد) يتأرجح نص "ياسمينة صالح" في روايتها "وطن من زجاج". التي مكنتنا من فهم أكثر لروايتها الأولى "بحر الصمت" الحائزة على جائزة "مالك حداد" التي أشرفت عليها الروائية الجزائرية "أحلام مستغانمي".

نحنُ العرب نهتم كثيرا بالمظاهر، تماما كما المحلات التجارية في الأسواق يهتم أصحابها بواجهاتها، وإعلاناتها الضوئية؛ كي تبدو جميلة، ولا يهمهم بعد ذلك نوعية البضاعة التي يروجون لها؛ إن كانت ترقى إلى مستوى ما تدعيه من رواج، أم هي كعجوزٍ وضعت في وجهها كل أنواع المساحيق، إلاّ أنّها لم تزدها إلاّ قبحاً، فهل يستطيع التجميل يوماً أن يصلح ما أفسده الدهر؟ وكذلك الشأن بالنسبة للأوطان؛ فهي أشبه ما يكون بأقفاص من زجاج، ورغم ذلك نتشبث بها ونرفض فكرة مغادرتها. وهو ما نوّهت به "ياسمينة صالح" حين ذكرت << لا يحق لهم أن يموتوا دون أن يكتب الحارس العام للبلدية تقريراً عن الميت وتاريخه وخطاياه السياسية بالخصوص، هل كان ينتمي إلى حزب أم إلى الدولة؟ هل كان يمجد الزعيم أم كان يكفر به >>[1]. لفهم أكثر لشعرية اللغة في أعمال "ياسمينة صالح" "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" نحاول إجراء مقاربة تطبيقية لكل مستويات اللغة، وبنية المكان باعتبار هذا الأخير في الرواية مكان لغوي بامتياز، مركزين في كل من ذلك على مدى تحقق الشعرية في كل منها.

قراءة المحنة في عنواني الروايتين:

في البدء يقف الدارس متأملا وحائرا أمام نص رواية: "بحر الصمت" للكاتبة الجزائرية المصرة على كسر جدار الصمت وتبني سياسة البوح وكشف كل الحقائق والوقائع. هذا الصمت الذي يتنامى يوما بعد يوم ليصبح شاسعا شساعة البحر الذي يستقبل هموم النّاس فيحتضنها ويدفنها في أعماقه، وفي نفس الوقت يحتفظ هو بهمومه وأسراره لنفسه.

أما في رواية "وطن من زجاج" تستهل الروائية روايتها بإهداء قاس، تتحدث فيه عن وطن مفقود: << حين نستيقظ صباحاً ولا نجد وطناً نتكئ عليه نكتشف حدّ اليتم والفراغ المهول الذي نجره يومياً في عمرنا الجاهز للانكسار، واليتم واللاأمل.. >>[2] وهنا يخالجنا شعور بقلق رهيب من دخول عالم الرواية، عالم يسكنه اليتم والفراغ المهول...فمنذ الوهلة الأولى نكتشف أنّنا سندخل وطنا لا يشبه أوطان الآخرين. إنّه وطن من زجاج أو بالأحرى "دولة من زجاج"، ولعل جميع الدول من نفس المادة، ومن المؤكد فإنّ الدولة الزجاجية مهددة في أي لحظة وبكل سهولة بالانهيار والفناء، وفي ذلك إشارة صريحة إلى زجاجية الأنظمة السياسية. ولعل من ذلك استوحت الكاتبة عنوان روايتها، وهو

عنوان مركب من ثلاثة كلمات؛ اسمان يتوسطهما حرف جر. الاسم الأول"وطن"مفرد ونكرة، والاسم الثاني"زجاج" نكرة أيضا. أدى الربط بين الكلمتين إلى إزاحة كلمة "وطن"، مع كل ما تحمله من دلالات، عن معناها المعتاد. فمن الناحية النحوية نحن أمام جملة اسمية مكونة من خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير "هذا وطن من زجاج"، ويأتي الخبر شبه جملة مكونة من الجار والمجرور، فيه وصف غريب للوطن، الذي لطالما اقترن اسمه بالسّيادة والشّموخ والصّلابة، إلاّ أنّه اليوم مقترن بالزجاج الشفاف الكاشف لما خلفه والفاضح له، والذي يعني أيضا الهشاشة والانكسار...ولكي نحميه يتعين علينا تسييجه، كما ينبغي علينا احترام الآخرين وعدم الاصطدام بهم، حتى نحافظ على سلامة بيوتنا جميعا. ويجب أن نضع، دائما، نصب أعيننا؛ الخاصية المميزة لمادة الزجاج وهي عدم إمكانية الالتئام إذا ما انكسر.

من هذا المنطلق تسجل أحداث الرواية انكسار"الأنا" في وطن يُضيق الخناق على المواطن إلى أن يفقد إحساسه بالمواطنة << الوطن الذي يجردك من صلاحياتك>>[3]، فيقع الصدام بين الأنا والحياة، وبين الأنا والوطن. هذا الأخير الذي يختبئ في صدورنا ونبحث عنه كلما شعرنا بالقلق عليه. وبهذا يحمل العنوان دلالات تمثل فكرة مقتضبة عن مضمون الرواية، ولا أدل على ذلك من انطلاق الرواية بسؤال وجيه وصريح مفاده: << كيف نحب وطنا يكرهنا؟ >>[4]. وطن لم يهنأ به أبناءه لا في الحرب ولا في السلم، وعلى الرغم من كل ذلك تقدم "ياسمينة" في إحدى فقرات الرواية إهداء صريحا يعبر عن حقيقة مشاعرها اتجاه الوطن، تقول فيه: << إلى الوطن الذي نحبه برغم كل شيء...ونعيش فيه برغم كل شيء ! >>[5]. وتظل حتى النهاية متمسكة بنظرتها التفاؤلية يحذوها الأمل في غد مشرق << لأجل أن أنتصر بالحب على القتلة. على الذين يتربصون بي أيضا دون أن يعرفوا أنّني أبقى لأجلك ولأجل أن أعيش في وطن وجدته فيك >>[6].

شكّل العنوان في الرّوايتين، باعتباره واجهة بارزة ولافتة، رسالة لغوية عامة موجهة إلى كل من يمكن أن يبادر بقراءته. وقد لجأت الكاتبة إلى استعمال عنوانين غير مباشرين مركبين تركيبا مجازيا. مما يفرض على المتلقي ضرورة قراءة المضمون لفك شفراته. ورغم الطابع المختصر الذي ميز العنوانين، إلاّ أن ذلك لم يزدهما سوى بلاغة، تثير في المتلقي هاجس التوغل في كنه العمل الأدبي. ذلك لأنهما يبدوان في الوهلة الأولى واضحين لا يحتاجان إلى شرح كبير، لكنّ سرعان ما يكتشف المتلقي عمق مدلوليهما، لأنّ سياق التركيب يخبأ عدة دلالات، فالكاتبة لا تريد أن تجيب عن كل الأسئلة التي يمكن أن تتبادر إلى ذهن القارئ منذ العتبة الأولى للنص الروائي، بل هي تعرض عليه شراكة في العمل؛ من خلال ما تحدثه من تشويش في أفكاره؛ وذلك بالجمع بين "بحر" و"صمت" و"وطن" و"زجاج".

لقد تجسدت المحنة في المدونتين الروائيتين بلغة بسيطة وواضحة وجميلة في أغلبها، ففي "وطن من زجاج" نصطدم بالمحنة منذ العتبة الأولى "العنوان"، هذه المحنة التي كانت عواقبها وخيمة

أدت إلى ضياع الوطن، << لن يفيدنا الحزن يا بني.. لا شيء يعوض خسارتنا، ولا شيء يعوض خساراتكم أيّها اليتامى في وطن سرق اللصوص والقتلة قلبه ! >>[7] ومثل ذلك، نجد عنوان "بحر الصمت" يدفع المتلقي إلى طرح جملة من التساؤلات؛ من بينها التساؤل عن حجم الصمت أولاً؟ والصمت عن ماذا ثانيًا؟

شعرية المحكي:

لفهم التركيبة الفنية لرواية "بحر الصمت" ألفيناها تتركب من اسم الكاتبة "ياسمينة صالح" المثبت على الغلاف، والذي يشكل "الأنا" الكاتبة التي حاولت مقاربة النص دلاليا بلغة شعرية دون أن تبدو للعيان. لغة عنيفة، بنيتها التركيبية شديدة الوقع من حيث إحكام نسيجها. أمّا لغة السرد فنجدها تتميز بدقّة المعنى، ووضوح الرؤية، فضلا عن لغة "الأنا" التي لم تنجح الكاتبة في إخفائها على امتداد السرد.

تتخلى الكاتبة أحيانا عن قناع الأنثى لتلبس قناع الرجل، ربما لأنها تجد فيه الحرية التي هي حكر على الرجل دون المرأة في مجتمع لا يسمح فيه للمرأة بتجاوز ثلاثية العرف والعادات والتقاليد. لتعبر عن هويتها كأنثى ووطن وتاريخ وثورة. ولعلّها حين كتبت نص عنف اللغة "بحر الصمت" كانت تحرص على استعمال الرّمز والإيحاء والتلميح. كتقنيّة فنية تساعد على انفتاح النص أمام المتلقي.

إنّ إدراك الروائية بوعي الكاتب المتمكن من أدواته الإبداعية، التي تجعل النص الروائي يعوّل كثيرا على جنون اللغة وتأثيرها على المتلقي، حين تسمو إلى درجة عالية من الشعرية. وقد أكّدت "ياسمينة صالح" على ذلك من خلال نصها، محاولة جعل اللغة وسيلة للتعبير عن الألم /الأمل/ العشق، في نفس الإنسان الجزائري، مقدمة ذلك في نسيج لغوي متفاعل لسانيا واجتماعيا وثقافيا ومعرفيا.

إنّ انفتاح النص الروائي أضحى مطلبا فنيا وجماليا، يمكن أن يحقق عبر اللغة ومستوياتها المتفاعلة نصيا. ولعل من أكثر ما يمكن أن يشد الانتباه عند قراءة نصي "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" أنّهما يستجيبان لهذا الانفتاح، مما أكسب اللغة قيمة جمالية وفنية عالية.

يمكن أن نتمثل عنف النص في التراكيب اللغوية للمقاطع السردية التالية:

<< كأني أراكِ أمامي بعينيك الخضراوين ووجهك الهادئ/المنفعل/القلق/الصّاخب...أكاد أناديكِ: جميلة.

أكاد أركض إليك باكيا نادما.

كم أحببتك يا سيّدتي...شردتني إلى مدن مشيتها حافيا وعاريا...

أحببتكِ كما لن يستطيع رجل أن يحب امرأة، كما لن تستطيع أغنية أن تغازل امرأة، كما لن تستطيع قصيدة أن تصف امرأة...

كنتِ مدينتي...منفاي.

كنتِ الرّجوع إلى الغموض...الرّحيل نحو المجهول.

كنت جنوني الأوّل والأخير فصرت ذاكرتي، بلاطها زجاج مكسور!

ها...النّهار يلج من ثقوب هذا اليوم الآتي...

هل أنا من سيفتح الباب عمّا قليل لأوّل ربيع قادم من زمن ليس زمني؟ >>[8] .

وقد زاد من شعرية النص توظيف الترميز الرومانسي في لغة الخطاب السردي: <<...كنت في كل مرة أجد نفسي حزينا حد الانكسار ألجأ إلى التعويض عبر ما أحفظه من الجمل ومن الأشعار التي أنقلها إلى كرّاسة خاصة كي لا أنساها...كي لا أخون فكرتها الأولى ولا أتشبث بكذبتها الأخيرة. أليست القصائد كالمدن. نحبها لأنها تكذب علينا. لأنها تخدعنا وتشوّه أحلامنا بالشعر، وبالكلام المنمق والجاهز...للقصيدة طعم الذكريات أيضا، لها جراح البدايات وعبث النهايات. كما المدن تماما حين تجرحنا عمدا وحين لا نجد غيرها لنسميها حبيبة ! >>[9]. وهنا نلمح طاقة سردية شاعرية مشحونة باللغة وبتركيباتها الشعرية، يمكنها إثارة ذائقة المتلقي. مما يؤكد أنّ "ياسمينة صالح" قد آثرت التخلي عن اللغة النثرية العادية لتعتمد لغة أخرى، هي اللغة الشعرية العازفة على وتر الانزياح. فلم يعد المعنى المقصود ظاهرا وجاهزا في النص. بل لابد للمتلقي من البحث وقراءة مابين السطور علّه يستطيع فهم هذه اللغة المشحونة بطاقة من البوح الشعري.

وهكذا شكلت اللغة عند "ياسمينة صالح" تركيبا فنيا، في شكل عنف المقول، يظهر ذلك في حدة الألفاظ ونارية التي تجعلها قادرة على اختراق القلب وهزّ مشاعر المتلقي. فيحسّها لغة شعرية رغم نثريتها، لغة ثائرة وغارقة في الشعر والثورة والإدانة الصريحة.

ولعلّ عنف اللغة فرضته طبيعة المواضيع المتناولة في الروايتين الغارقتين في الحزن والدموع والرحيل والغياب واليتم. لكن هذا العنف اللغوي تقدمه الكاتبة بأسلوب عذب دافئ أحيانا وجارح وماكر أحيانا أخرى، خاصة عندما تتحدث الروائية عن أسرار تاريخية، أسرار ظل يتهرب من ذكرها الكثير من الكتاب والمؤرخين، نظرا لحساسيتها، وإمكانية محاسبة من يتجرأ على كشفها. فجعلت سبيلها لذلك تقنية الضمائر، وتقنية الحديث باسم الشخصيات، بلغة فيها من الإيحاء والدلالة ما يصعب من مهمة القارئ الذي عليه أن يكون في مستوى قراءة النص علّه يحظى بإدراك ما خفي من دلالاته الكامنة.

و"بحر الصمت" فوق ذلك كله رواية مزعجة فضّاحة، لأنّها تتجاوز خطوطا حمراء لطالما تم الوقوف عندها باسم التاريخ وباسم الظروف الواقعية. وقد تحدثت الروائية عن " ثّوّار وقادة " جاء بهم الخوف، وأنتجتهم الصدفة والأقدار. كما أنّها تفضح، فئة من الناس كانوا في أصلهم أنذالا، سفلة ومجرمين، وكيف أن الثورة يمكنها أن تتغاضى عن كل ذلك وتتسامح بل وتصفح عنهم لمجرد قيامهم بدور ولو بسيط من أجلها، ذكرت على لسان بطلها "سي سعيد" << لم يكن سهلا الاقتناع بعدئذ بفكـرة أن الثورة تقدر على غسل آثام الناس، لمجرد انتسابهم لها... لم أكن لأقبل أن يصبح

الزنديق قديسا بموجب انتمائه للثورة –أيّة ثورة كانت- ... تخيلت فجأة "بلقاسم"... لو صار ثائرا من الثوار؟؟ تساءلت: هل بمقدور الثورة أن تغسل آثام هذا الرجل وتنسي الفلاحين والقرويين كرههم الشديد له؟ هل يعقل أن يصبح "بلقاسم" قديسا بهذا الشكل المبهم؟ وهل يعقل أن أتسامح مع ثقافة الثورة بعدئذ ؟! >>[10]. يبدو هنا أن اللغة وحدها قادرة على البوح بأسرار المحظورات. فتساعد بذلك على التخفيف من حدة الضغط النفسي الناجم عن الكبت...

جماليات الأداء اللغوي:

تكاد تجمع التعريفات الحديثة على أنّ اللغة نظام له عناصره الأساسية. إنّها وعاء يصب فيه أي عمل إبداعي، ويعتبر النص الروائي أقرب الأشكال اللغوية إلى الحياة والواقع، لذلك وجدنا الكاتبة قد اتخذت من اللغة وسيلتها للتعبير عن آلام المجتمع.

وعلى الرغم من الطابع التاريخي والسياسي للروايتين كما يبدو من خلال الأحداث المتتالية من البداية إلى النهاية، إلا أن اللغة المستعملة لغة شاعرية وبسيطة تنساب بشكل جميل، تأتي لغة الحوار فيها أحيانا بسيطة أقرب إلى العامية حيث توظف الكاتبة بعض الألفاظ العامية وتتولى شرحها بجمل تفسيرية. نذكر منها على سبيل المثال:

<< ... تلك التي حين يغادرها تقبل جبينه وتقول له "اتهلا في روحك يا وليدي" (اعتني بنفسك)...>>[11]

أيضا يتخلل النص بعض الجمل الفرنسية تترجم الكاتبة أغلبها:

<< وأنت واش راك؟ comment ça va?

ما تشكرش الحالة صارت "ميرد Merde "ربي يستر يا خويا العزيز! >>[12]

وهو الشيء نفسه نجده في رواية "بحر الصمت":

« La revolution est fille de l'injustice pendant qu'on fait la guerre, il faut oublier sa religion !...

"الثورة، هي ابنة الظلم، بينما نحن نحارب، فيجب أن ننسى الدّين" >>[13].

وكذلك مقاطع كاملة من أغان فرنسية نذكر منها:

« Je t aime tant ! Peut-être maladroitement, mais sans détour !
Comme on peut aimer un enfant tremblant d'amour !
Je t aime tant ! d'un amour pur , et merveilleux éperdument ! Comme un
Croyant peut aimer dieu aveuglement ! »[14]

و تبعا لما سبق نقول إنّ الكاتبة "ياسمينة صالح" منحت النص قوة من خلال اللغة المشكلة له، والتي تعبر بصدق وبعمق وبوضوح عن عمق رؤية الكاتبة.

السمات الأسلوبية في الخطاب الروائي الجزائري "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" أنموذجا:

تميزت الرواية عموما من ناحية الأسلوب بما يلي:

1 . سيطرة الوظيفة الشعرية على النص أكثر من غيرها إلى جانب الوظيفة الانفعالية:

تجنح الروائية إلى تنويع الأسلوب لتعبّر بصدّق عن مجتمعها، موظفة الظاهرة اللغوية توظيفاً جمالياً، يقول محمد الطرابلسي: << ولما كان موضوع الأسلوبية توظيف الظواهر اللغوية والفنية توظيفاً جمالياً، كان تقدمها مرتهناً بالنظر في مجالات التوظيف وسياقات التجلي>>[15]. يتضح ذلك في عدة مقاطع من الروايتين، نذكر منها: << ..قبالتي يبدو الوطن هلاميا.. والناس يركضون في كل اتجاه، بينما الأمطار تأكل الفضاء في صخب مثير.. للمطر وجه الأمنيات المستحيلة.. له صوت العشق في لحظة صمت.. للمطر طقوس الفؤاد حين ينزل قبالة وحدته وعزلته الأبدية.. قبالة المطر يمكنني أن أصمت، وأتكلم في الوقت نفسه.. قبالة المطر يمكنني البكاء فجأة، أو الضحك بهستيريا من دون أن أضطر إلى تبرير جنون اللحظة التي تركبني.. في مكان كهذا، وأمام وحدتي القابعة على الكرسي بجواري، وسيجارة أدخنها بنهم، يمكنني تأمل الأشياء بابتسامة لا تخلو من سخرية ومرارة.. كأن أضحك على جزأرة الوقت كله.. كأن أبكي على هباء الكون كله.. من قبل، كنت أظن أن القلب هو الخاسر الوحيد في الحكاية.. لأكتشف أن الخاسر الأكبر هو الكون الذي يصير ضيقا وتافها وصغيرا.. لم يعد للكون متسعا لأجل أن نحمل ما تبقى من الكلمات، ولم تعد اللغة قادرة على استيعاب ما نريد قوله.. كل شيء جاهز للنهاية.. حتى ما يولد الآن يولد ميتا.. الأمل والفرح الوهمي والوطن الذي يموت فينا كثيرا كلما ظننا أننا ننقذه إلى غد آخر..>>[16]. من خلال هذا يبدو أن الروائية تعاطت مع اللغة تعاطيا إبداعيا مبنيا على التجديد. وكتاباتها غير مقيدة بالزمان والمكان. واللغة عندها وسيلة للإيحاء.

2 . وضوح الأسلوب ومناسبته للموضوع مما يدل على أنه أدى وظيفته اللغوية:

الروائية جريئة في طرحها وعرض قناعاتها ووجهات نظرها، واضحة ورشيقة في تعبيراتها. لها أسلوبها الخاص في بناء عالمها الروائي، نجد ذلك في عدة مقاطع من عملها الروائي نذكر على سبيل المثال:

<< ابكي.
وعندما تخلصين من البكاء تعالي معي
وتعالي إليّ
فأنا بحاجة ماسّة إليك
بحاجة إلى ربيعك
فلم يبق الكثير لي،
غير قرية بعيدة وبيت وتاريخ مشوّه ومجروح.
أنا بحاجة إلى وضوحك قبل أن أذهب فارغا من ذكرياتي
ومن صمتي الذي صار بحرا...>>[17].

لعلّ الراوية وجدت في اللغة متنفسا للتعبير عن همومها وانشغالاتها وقلقها عن وطن جريح، لم يجد بعد سبيلا للفرح والاحتفاء بأبنائه. وهي في ذلك واضحة وصريحة لدرجة أنها استطاعت أن تنقل

للقارئ إحساسا بالغصة، والحرقة عن واقع يحاول طمس حقيقته، ليرسم معالم جديدة لا تمت له بصلة. ولعلّ في عبارة "الصمت" التي ترددت في الروايتين إشارة إلى هدوء يسبق العاصفة.

3 . عنف الخطاب شكلا ومضمونا:

إذا كانت اللغة عند "ياسمينة صالح" قد نجحت في التخلص من أسرها المعجمي، لتنطلق إلى فضاء سميائي لا محدود عبر النسيج اللغوي، فإن المضمون هو الآخر -كما يبدو في الروايتين- قد تبنى جدلية عنف الطرح. حكى "سي سعيد" عن ابنته << ابنتي هي ذنبي الكبير الذي اقترفته في حقّ نفسي، وفي حقّ الآخرين...جاءتني هذه الصغيرة لتعرّيني أمام ذاكرتي، وتضعني قبالة الجدار كي تطلق النّار عليّ، وعلى كلّ ما يشبهني، كما يفعل الثوّار الصغار، الذين يكفّرون العالم ويصدّقون حقّهم الوحيد في الانتقام لكرامتهم المجروحة...هل كنت والدها أم شخصا غريبا ومتطفّلا حان وقت القضاء عليه؟ بدت لي الفكرة مثيرة للسخرية والابتسام، ولعلّي ابتسمت حقّا، فقد رمتني ابنتي بنظرة غاضبة، كأنّها تريد أن تذكّرني أنّني فقدت حقوقي المدنية كلّها بمجرّد دخولها عليّ كالدهشة، أو كاللعنة...>>[18]. فالمضمون لم يعد أسير اللغة ومدلولاتها، التي تعنى بتشكيل خطاب محمل بالأفكار، التي يريد الكاتب بثّها في المتلقي. هذا الأخير الذي أصبح أكثر وعيا بالنص، فهو يقرأ ويؤول وينقد، وينتج حين يقوم بملإ البياضات، ويبدع حين يعيد بناء النص بطريقته الخاصة، مما يتيح له فرصة تقويم قدرة الإبداع عند المؤلف.

4 . بناء الخطاب الروائي في قالب سردي يختلف عن السرديات الكلاسكية من حيث بناء الجملة:

يكاد يتفق الدّارسون لأعمال الرّوائية "ياسمينة صالح": "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" على عدّهما من الروايات التي أحدثت ضجة كبيرة بأفكارها وأسلوبها، داخل وخارج الوطن. من خلالهما تمكنت الكاتبة من إدانة أولئك الذين أقحموا في الثورة، أو بمعنى أصح أقحموا أنفسهم فيها دون اقتناع. عبرت الكاتبة عن ذلك بقولها: << كانت الحرب وسيلة مثلى لاستعادة قيمة مفقودة في زمن الاحتلال..قيمة يفهمها الرّجال في كيفيّة حملهم السّلاح، ودخولهم إلى ساحة معركة يخرجون منها شهداء..وتلك وسيلة فاعلة لتحديد نسبة الوطنيّة في دم كلّ واحد منهم، والحال أنّهم كانوا يتنافسون في إثبات وطنيّتهم، ولتبييض ماضيهم وغسل جرائمهم القديمة..>>[19].

"بحر الصمت" و"وطن من زجاج" تجربتان تضافان إلى رصيد المتن الروائي باللغة العربية، إنهما تحيلان على طرائق تعبير وتطور إبداعي فني ورؤية خاصة للعمل الأدبي، يعود ذلك إلى الظروف القاسية التي مرّ بها المجتمع الجزائري، وكفرد من هذا المجتمع تفاعلت الروائية مع تلك الأحداث الصعبة، وتمرّدت على كيفية التعامل معها، متّخذة من اللغة وسيلتها الأساسية للتعبير عن ذلك، مما أثرى تجربتها الفنّية. التي سجلت فيها أدق تفاصيل حياة النّاس، والتي تكشف بصدق عن واقعهم المعيش.

5 . تعامل اللغة بمستويين أولهما فصيح وهو الغالب على النص والآخر يميل إلى العامية:

تكشف الروايتين عن مدى وطنية الكاتبة "ياسمينة صالح" والتي وجدناها شديدة الحماس للغة العربية رغم ثقافتها الفرنسية، واستعمالها لبعض المقاطع العامية، إلا أنها حاولت الاستفادة من كل ذلك لتقدم تشكيلا لغويا جديدا؛ فيه من البيان والبديع ما يرقى بلغتها إلى مستوى الشعرية. أسلوبها يعتمد على جمل قصيرة وشاعرية؛ ذات نبرة غنائية، كما انّه يتأرجح بين الانتقال من داخل الرواية إلى خارجها، مساهما في خلق الدلالة وتوسيع أفق القراءة، مما أعطى للكاتبة فرصة بناء علاقة تفاعلية مع المتن، حتى لنكاد نشتم رائحتها بين سطوره. عبرت عن رؤيتها للواقع، في محاولة لكشف الحقائق أمام القارئ، فاسحة له المجال للإشتراك في بناء دلالة النص. أين تترك الكاتبة مساحة للقارئ لطرح الأسئلة حول خطاب الرواية؛ بدء من عتباتها النصية وخصوصا العنوانين الرئيسيين "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" وصورتا الغلاف، وانتهاء إلى قراءة المتنين. حيث تكشف الكاتبة عن القيود التي تكبل أيدي المرأة الجزائرية وتحرمها حتى من حقها في التعبير عن عواطفها، في وطن جريح مكابر يحاول الوقوف برغم كل شيء. وباختصار شديد يمكننا نعث أعمال "ياسمينة صالح" بالوطنية؛ إذ تحفل بدرجة عالية من الحس الوطني للكاتبة.

6 . اعتمادها على علاقات التناص المتنوعة:

وعلى رغم من لغة الكاتبة الجميلة جدا والشاعرية، وامتلاكها قدرة إيحائية كبيرة في استدعاء عنصر التشويق وحسن إدارة الحبكة الروائية، إلاّ أن "ياسمينة صالح" لم تستطع إخفاء إعجابها وتأثرها بأسلوب وطريقة كتابة الروائية "أحلام مستغانمي". يظهر ذلك في بعض التقاطعات فيما بينهما، ففي التعبير عن الماضي (الثورة) والحاضر (أزمة الجزائر)، تجنح بنا بعض التعابير إلى رواية "ذاكرة الجسد" من قبيل << لا شيء يعوض خسارتنا، ولا شيء يعوض خساراتكم أيّها اليتامى في وطن سرق اللصـوص والقتلة قلبه >>[20]، وكذلك قولها << ألجأ إلى التعويض عبر ما أحفظه من الجمل ومن الأشعار التي أنقلها إلى كرّاسة خاصة كي لا أنساها... كي لا أخون فكرتها الأولى ولا أتشبث بكذبتها الأخيرة. أليست القصائد كالمدن. نحبها لأنّها تكذب علينا، لأنّها تخذلنا وتشوّه أحلامنا بالشعر>>[21]. ومن هنا يبدو لنا واضحا تأثر الكاتبة بالروائية "أحلام مستغانمي".

شعرية المكان:

يكتسب المكان شعريته ويرتبط ارتباطا وثيقا مع باقي العناصر المشكلة للنص الأدبي، ويتجسد أدبيا وفنيا وجماليا، من خلال طاقاته التعبيرية والدلالية والإيحائية. هذا وقد تختلف شعرية المكان << من مقطع لآخر، وهو الأمر الذي يجعلنا نقوم بالتأويل، فالمسجد في الرواية يعطينا معنى أوليا كونه مكانا للصلاة والعبادة، وهو في الوقت نفسه يعطينا معنى صوفيا للزهاد الذين يلازمونه ليلا ونهارا...>>[22] وعليه يتعين على المبدع الوعي بالكلمات ودلالاتها خاصة عند التوظيف، لأن الكلمة الواحدة يمكن أن تحيل إلى عدة معاني. وفي ذلك انفتاح للنص وتعدد قراءاته.

ولا نبالغ في القول إذا اعتبرنا المكان عنصرا فنيا أساسا يقف في مقدمة عناصر التشكيل السردي للعمل الأدبي، فهو يتمتع بقدرة فنية فائقة على التأثير في الشخصيات في مختلف وضعياتها وحالاتها الاجتماعية والنفسية... كما يؤدي دوره في بناء الحبكة، وسرد الحوادث والوقائع، والتعبير عن المواقف. لذلك فالمكان لم يعد -كما كان سائدا- مجرد عالم مادي يحتوينا، وإنّما أصبح بإمكانه استيعاب ذواتنا وأفكارنا. معالمه مستقرة في لاوعينا، نستدعيها كلما احتجنا إلى تصويرها.

تجاوزت الروائية في روايتي "بحر الصمت" و"وطن من زجاج" الوصف الهندسي للمكان وتحديده للإطار الذي تجري فيه الأحداث إلى جعله بناء قابل للامتزاج بذات الشخصية، يضيق ويتسع في الآن نفسه وذلك بحسب نفسيات الشخصيات؛ فالغرفة التي جمعت "سي سعيد" بابنته تضيق إلى حد الاختناق كلّما ازداد يأس "سي سعيد" من مسامحة ابنته له، وهي نفسها تتسع حينما يهرب "سي سعيد" من مواجهة ابنته فينظر إلى نقطة بعيدة أو إلى اللامكان، ليجنح بخياله إلى أمكنة مليئة بالذكريات التي قرر الليلة البوح بها لابنته << فجأة ارتبكت، وهربت من غضبها إلى الصورة المعلّقة على يمين الجدار حيث تصدمني حقيقتي الأخرى...الصورة تدينني، تماما كما تدينني عينا ابنتي...أهرب إلى النافذة المطلة على اللّيل، وعلى المدينة الناعسة...أهرب إلى اللّيل وأجثو على ركبتيّ أمامه وأصرخ...آه أيّها الليل، آه... لا تضف إلى انكساري انكسارا...في عينيها قرأت نهايتي وبداية الأشياء >>[23]. وهكذا تحولت عينا ابنة "سي سعيد" إلى مكان يقصده كلّما أراد قياس درجة إدانتها له. ولمّا كان المكان قابلا للاتساع رغم الضيق، وللضيق برغم الاتساع وذلك وفقا لإحساس وشعور الشخصية. نجده أيضا قابلا للانفتاح والانغلاق، فقد جاء المكان في هذين العملين << مغلق ومفتوح في الوقت ذاته من حيث الإحساس الزمني بالأشخاص في مقابل الانغلاق الذي يمارسه الآخر، وقد أدى كل هذا إلى تداخل بين الانغلاق والانفتاح زمنيا كمقياس لمغزى الحياة، ومن ثم إحلال عنصر المكان محله؛ لأن وجود الأشياء في فضاء المكان أبين وأرسخ من وجودها في فضاء الزمن >>[24]. ولدى مقاربتنا للروايتين لمسنا براعة الكاتبة في تشكيل الأمكنة، التي جعلتها طيّعة تتأثر بذات الشخصية، وتشارك السارد حزنه. ولأن المكان جزء من كيان الإنسان، شعرنا بوقع الصدمة التي أصابتنا بها الكاتبة وهي تقدم إهداء روايتها "وطن من زجاج" << حين نستيقظ صباحا ولا نجد وطنا نتكئ عليه نكتشف حدة اليتم والفراغ المهول الذي نجرّه يوميا في عمرنا الجاهز للانكسار. واليتم..واللاأمل..>>[25]. فمفردة "وطن" تعني المكان الذي يولد الإنسان فيه وينشأ، وإليه ينتمي رضاء أم قدراً، تماما كما البيت الذي نولد فيه دون اختيارنا، فتطبع زواياه ومحتوياته وجدرانه وأرضيته وأثاثه في ذاكرتنا، فنتعلق بها لدرجة أنها لا تبرحنا مهما امتد بنا العمر، ومهما تغيرت أحوال معيشتنا. بل وقد نعيش الماضي بكل حيثياته عبر أطلال المكان.

وهو ما حدث مع "سي سعيد" حين تحدث عن جميع الأمكنة التي سكنها، وإن كان قد تمنى في النهاية العودة إلى قريته "براناس" مسقط رأسه؛ والتي اتهمها مرارا بأنها سبب آلامه. حدث أيضا مع

"لاكامورا" أن سرد جميع الأمكنة التي سكنها أو تردد عليها ليبلغ في النهاية العاصمة التي احتوت ماضيه المتمثل في عمته ودراسته، وحاضره المتمثل في عمله ولقائه الحلم بعائلة المعلم. وهكذا لا يمكننا أن ننكر على المكان شعريته، خاصة وأن الروائية برعت في تشكيله بطريقة فنية تمكن المتلقي من تصور المكان بكل أبعاده وتجلياته، من خلال تلك الألفة التي نسجتها بين الشخصيات والأمكنة، فجعلت كل منها يسكن الآخر. ولم يعد من الصعب علينا بعد ذلك كمتلقين أن نتخيل الشخصية وهي ترابط بالمكان؛ كغرفة "سي سعيد" التي بدت أشبه بسجن لإنسان أدرك أخطاءه متأخرا؛ أي بعد صدور الحكم عليه.

مراجع البحث وإحالاته:

(1) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. الدار العربية للعلوم. بيروت. ط1 2006. ص10.
(2) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص 5.
(3) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص8.
(4) المصدر نفسه ص7.
(5) المصدر نفسه ص5.
(6) المصدر نفسه ص 175.
(7) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص24.
(8) ياسمينة صالح: بحر الصمت. دار الآداب. بيروت. ط1. 2001. ص 127/126.
(9) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص25/24.
(10) ياسمينة صالح: بحر الصمت. ص26/25.
(11) ياسمينة صالح: وطن من زجاج ص 104.
(12) ياسمينة صالح: بحر الصمت ص 40.
(13) ياسمينة صالح: وطن من زجاج ص 135.
(14) المصدر نفسه ص51.
(15) الطرابلسي محمد الهادي: تحاليل أسلوبية. دار الجنوب. تونس. دط.1992 .ص7.
(16) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص 100/99.
(17) ياسمينة صالح: بحر الصمت. ص 109.
(18) ياسمينة صالح: بحر الصمت. ص 8.
(19) المصدر نفسه ص41.
(20) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص25.
(21) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص24.
(22) عزوز علي اسماعيل: شعرية الفضاء الروائي عند جمال الغيطاني. دار العين للنشر. ط1. 2010. ص61.
(23) ياسمينة صالح: بحر الصمت. ص9/8.

(24) محمد تحريشي: في الرواية والقصة والمسرح (قراءة في المكونات الفنية والجمالية السردية). دار النشر دحلب. ص35.

(25) ياسمينة صالح: وطن من زجاج. ص5.